نوابغ المدرسة المارونية الاولى : ٤

ابراهيم الحاقلي او الحاقلاني (١٥٩٤؟ـ١٦٦٤)

بقلم الخوري بطرس غالب

٣

الامير فخر الدين المعني وتلاميذ المدرسة المارونية الرومانية (تابع)

مما اطلعنا عليه من الوثائق ، ان الحاقلاني استدعي الى باريس سنة ١٦٣١ ، ليشترك في تصحيح ترجمة الكتاب المقدس الى اللغات المختلفة ، وفي طبعه تحت اشراف الاب لجاي. وهو الكتاب الذي نشر في سبعة مجلدات ، بوشر في السنة ١٦٢٨ وانجز في السنة ١٦٤٢ . ولكن علامتنا لم يُطل الاقامة في عاصمة الفرنسيس ، في تلك المرة الاولى ، بل عاد الى لبنان ، او أُرسل اليه ؛ وهذا مما لا يمكننا الجزم به . على اننا نعلم ان الامير فخر الدين كلفه ان يهتم بامر ابنائه الثلاثة حسين وحيدر وحسن ، بنوع ان يؤمن لهم مستقبلهم ، وارسل معه اربع واربعين بالة خز ليرهنها في المصرف الرسمي في فلورنسة ويجعل ثمنها راس مال يخصص لمعيشة اولاد الامير المذكورين وتربيتهم . لانه كان يخاف ان ينقلب عليهم اخوتهم ويحرموهم كلّ ميراث ، وقد اوجب على الحاقلاني ان لا يأتي عملاً قبل ان يستشير كفيلة الفراندوقية الاميرة كريستين . وكان سفر علامتنا ، الذي يدعوه فخر الدين « امين سره وخادمه الامين » على الباخرة الخاصة بلاورنسيني في شهر تشرين الثاني من السنة ١٦٣١

ومما لا ريب فيه ان ما حمل الحاقلاني والذين تقدموه من تلاميذ المدرسة الرومانية المارونية[1] على اجابة الامير فخر الدين الى رغائبه هو عطف الاحبار الاعاظم عليه وعلى مشاريعه ، ومنهم اوربانوس الثامن واقاربه عائلة بربريني فانه

(١) ومنهم الحاج كيوان ، كاتبة الامير ، على ما روى الاب قسطنطين الباشا

كان قد كتب ، مثل سلفه بولس الخامس ، الى بطريرك الموارنة واساقفتهم بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٦٢٨ ، يعرب عن اسفه لعدم تمكنه من ارسال عمارة مسيحية الى ثغور فنيقية وفلسطين . وقد ورد في الكتاب المذكور ما ترجمته :

«ان التعزية التي شعرنا بها عند افتكارنا بمساعدة النصارى لدن تحققنا استعداد امير صيدا الحسن ، قد زادت كدرنا لاننا لم نستطع ان نتمم اماني المسيحيين المجيدة وافتخارهم بالعمارة المسيحية . ولذا نراما مضطرين الى ان نكتفي بان نطلب منه تعالى ان يوفق مساعي الامير ويحقق متمنيات ذلك القائد العظيم . لانه ان صح ما ترغب فيه ايطالية فان آسية ستعظم ذكر ذلك الذي يكون قد تمكن من قهر الاتراك وحماية الانجيل . . . »

ثم اثنى صاحب القداسة على اهتمام مطران قبرس ، جرجس مارون الاهدني ، والخازنيين قواد جيش الامير ، والجبيشيين امناء المال لديه . ورغب الى البطريرك ان يقدّمهم بالنيابة عنه اسلحة يكون قد سبق وباركها بيده . وبناء على هذا العطف ، وتوصية الحبر الاعظم ، عني تلاميذ المدرسة المارونية بان يؤيدوا الامير فخر الدين .

ترك ابرهيم الحاقلاني باريس ، بعد ان نشر سفر واعوت ؛ ثم الكتاب الثالث من سفر المكابيين ، باللغتين العربية والسريانية ، وتقيّد بخدمة فخر الدين الى مدة ، فقام في توسكانا بالمهمة التي ندبه اليها كما تقدمنا وقلنا . . وعاد الى سورية في شهر نيسان من سنة ١٦٣٢ ، بناء على ايعاز كفيلة الدوقية الاميرة كريستين ، حاملاً الكتب والهدايا من رومة ومن فلورنسة . وكانت هدية الاميرة كوبة شطرنج جميلة للغاية مع لوازمها مصنوعة من العنبر المحبوك بالذهب وكانت رقعة الشطرنج من العنبر الخالص المقطّع بخيوط ذهبية تختلف الوانها باختلاف لمعان العنبر . اما الفراندوق فارسل مخدعاً مخصوصاً من المخمل القرمزي الموشّى مع سريره وما يلزمه من جهاز يناسب عظمة المهدي .

وارسل البابا والكردينال بربريني كتاب انجيل عربيّ مذهب ، وستة شماعد مباركة ، ذكرها البطريرك يوحنا مخاوف في رسالته الى السيد فوستوبولي ، مهردار البلاط البابوي (٢٤ك١ ١٦٣٣) ومما جاء فيها : « ان مطران قبرس جرجس

مارون سيعرض لسيادتكم شفاهاً اشياء كثيرة مفيدة للنصرانية في قبرس وانه سيصف لكم عاطفة الشكر التي تلقى بها السيد الامير الاشياء التي تنازل قداسة سيدنا وابينا البابا وصاحب الثيافة الكردينال بربريني وارسلاها اليه.»

وما لبث الحاقلاني ان عاد الى توسكانا ، ثم منها الى سورية ايضاً ، فبلغ صيدا في اليوم العاشر من ايلول من السنة ١٦٣٢ . وكانت الغاية من رجوعه الى لبنان تبرير نفسه لدى الامير مما اتهمه به خصومه وهو انه بذّر اموال فخر الدين واهمل مصالحه . ولم يصعب على الحاقلاني ان يقنع الامير ببراءته ، لانه خدم باخلاص وتجرّد حباً بخير بلده.

وبعد مدة عاد الى توسكانا معزّزاً ، اذ سمّاه فخر الدين ممثلاً له لدى الغراندوق . فقام بما وُكل اليه احسن قيام . ورجع الى لبنان ليقدّم حساباً عن اعماله ، فبلغ صيدا في اواخر كانون الاول من السنة نفسها وبيده الحوالات بثمن الحرير . ولم يلبث ان ركب البحر ثانية الى ايطالية ، حاملاً استقالة السيد ده فرازّانو فتصل توسكانا في صيدا الى الغراندوق : «لان نفسه كانت سئمت المماحكات والمتاعب التي كان يسبّبها له الفرنسيّون.»

واما المهمات التي كلّف الحاقلاني القيام بها فهي تلك التي كان قد وكل امرها الى سواه ، من عقد معاهدات سياسية او تجارية ، والتي واصلها غيره من تلاميذ المدرسة المارونية الحبرية ، وخصوصاً المطران جرجس مارون الاهدني.

ويظهر ان مهمة الحاقلاني السياسية انقضت بهذا السفر الاخير.

. . .

وقد تبين لنا مما طالعناه من الوثائق التاريخية ، ومما ذكره المتقربون من فخر الدين ، ان الامير كان ذا مقدرة سياسية لا تُنكر ودهاء في الاساليب جعلت احد مؤرخيه ماريتي ان ينعته «بمكيافل الشرق» . على ان كل ما استخدمه الامير من الوسائل دفعه الى اتخاذها حبه وطنه ، وسعيه الاكيد لتوطيد اركان لبنان في حدوده الطبيعية الجغرافية وطموحه الى الاستقلال بالحكم فيه ، وقد توفق الى تنفيذ بعض خطته في بادئ الامر ، لكنه فشل اخيراً لانه لم يجد من يعضده في تحقيق مقاصده . وقد آخذوه بعدم الاخلاص في

وعوده الكثيرة ، واستحلاله جميع الوسائط التي كان يرجو ان تنيله غايته ، وعدم اهتمامه بدين اكثر من الآخر ؛ بل انه كان يرى الطريقة المثلى لغنم عطف الدين كان يؤمل مساعدتهم ويتبعها توصلاً الى مراميه . بعد المرسلين بالارتداد الى الكثلكة ، فيبلغون ذلك الى الحبر الاعظم . ويحمي النصارى ويعززهم ويكفل لهم راحتهم وامورالهم ويعاملهم بالعدل ، وكل هذه تصل الى مسامع اوربانوس الثامن كما وصلت من قبل الى بولس الخامس ، فيتعزّى ويعلل النفس بتنصر فخر الدين . لكن الامير لم يرتبط بوعد ثابت بل كان يعتذر اذا سُئل عن نيته بهذا الشأن ، كما فعل يوم اجتمع في نابولي بممثل اسبانية لعقد معاهدة مع دولته وغراندوق توسكانا . فالحّ عليه الممثل بان يعتنق الدين المسيحي فلم يجب صريحاً ، بل تعلل بحجج واهية ؛ لكنه وعد بانه سيفعل ذلك في فرصة اوفر ملاءمة .

اما تعزيزه النصارى في لبنان فدفعه اليه عرفان الجميل نحو الخازنيين الذين خلّصوه وسهروا على تربيته . وللعامل السياسي ايضاً تأثير بليغ في هذا ، لان الامير ، اذ كان يطمح الى كسر القيود التي كانت تربطه بالاستانة ، رأى ان النصارى اخلص من يمكنه الاعتماد عليهم . لانهم كانوا يبغون هم ايضاً التخلص باي طريقة كانت من الاتراك ومن استبدادهم . وقد علم حق العلم ان جبل لبنان ، اذا تعزز شأنه اصبح المعقل الحصين الذي يصعب على الاتراك فتحه . فضلاً عن ان النصارى كانوا يستطيعون ان يحملوا الغرب على العطف على فخر الدين فيمده بالمساعدات .

وكان فخر الدين ، ككل رجل سياسي محنك ، لا يفوته ان المنفعة المادية لها تأثيرها الشديد في مجلس الملوك ، وان خير الدولة المادي كثيراً ما يميل كفة الميزان . فاخذ يسهّل طرق التجارة لغراندوقية توسكانا ، ويعزز المبادلات الاقتصادية ، ويعد الغراندوق باعطائه بعض الفرض البحرية ليجعلها مرافئ تجارية وحربية اذا قضت الحاجة لترويج التجارة وارسال الذخيرة الى لبنان .

هذه الوعود وما شاكلها كانت تجعل البابا والغراندوق يطلان النفس باستمالة فخر الدين ، والتحالف معه على استرجاع الاراضي المقدسة ، وصيانة حدودها

باقامة دولة قوية الشوكة يرئسها الامير فخر الدين المتنصر. ولا نستطيع الجزم في امر اعتناق الامير الدين المسيحي، لعدم وجود مستندات تاريخية راهنة تثبت هذا الموضوع، لكننا نرجح ذلك.

٤

المؤلف والاستاذ

عاد الحاقلاني الى باريس، واستأنف فيها عمله الاول، اي التأليف والترجمة والتعليم والدفاع عن ترجمته كتاب راعوت؛ لان الذين انتقدوه كانوا ممن اشتركوا في ترجمة البوليغلوتا وطبعها وهم جبرائيل الصهيوني، وڤالريان، وفلاڤيني. وبقي في باريس حتى سنة ١٦٤٢، على انه كان يأتي الى رومية مرات. وفي سنة ١٦٣٥ سمي ترجماناً لمجمع نشر الايمان، وخلفاً للمطران سركيس الرزي في لجنة تصحيح ترجمة الكتاب المقدس وطبعها (١٦٤٢).

اما هذه الترجمة فقد اورد حكايتها الاب ڤاكاري اليسوعي في كتيب نشر في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٢٥ واليك ملخصها:

كان توما اربنيوس قرر ان يطبع الكتاب المقدس في ليدن من اعمال هولاندة. عرف بذلك سفير البابا في بلاد الفلمنك، فاخبر مجمع نشر الايمان، المنشأ جديداً، بواقع الحال في ١٨ ايار سنة ١٦٢٢ فخشي المجمع ان تأتي الطبعة فاسدة مغلوطة .. على ان اربنيوس اعرب عن استعداده لنشر نسخة الكتاب المقدس الموجودة في المكتبة الڤاتيكانية. فكُلف اربعة من العلماء ان يعيدوا النظر فيها، واصلاح ما قد يكون تسرب اليها من الاغلاط، لاسيما تلك التي قد يشتم منها الهرطقة واوعز اليهم ان يتداولوا في امكان طبعها. وكان الاعضاء الاربعة المطران سركيس الرزي، مطران دمشق الماروني المعين رئيساً للجنة وهو احد تلاميذ المدرسة المارونية الاولين، ثم منصور شلق الحاقوري، والاب هيلاريون رانكاتي، وتوما من نوڤارا. على ان صعوبات جمة اعترضت تنفيذ هذا المشروع. فأمر المجمع المقدس بان تترجم النسخة الدارجة (*La Vulgate*) وقد جرى ذلك سنة ١٦٢٤.

وبعد ان عقدت الاجتماعات في دار مطران دمشق في رومية ، في ٣و١٣ ك ١ من تلك السنة ، قُرّر طلب النسخ العربيـة الموجودة في مكاتب الڤاتيكان ومديسيس والتمبسيا ، وبتسليمها للمصححين او الترخيص لهم بمطالعتهـا . وفي ٦ ك٢ ١٦٢٥ وصل الى المطران سركيس الرزي ستة مجلدات عربية ، فابتدأ في اصلاح ما رأى اصلاحه وقدّمها للطبع ، ولا تزال هذه النسخ المصححة بخطه موجودة في مكتبة كازاناتو.

وكانت الخطة المرسومة ان تتبع بقدر الامكان النسخة البرانية . بُدئ بالطبع تحت اشراف الرزي في ك ٢ سنة ١٦٣٢ ، وفي ٢٦ حزيران قدّم سفر التكوين للحبر الاعظم . الّا ان الموت عاجل الرزي في ٢٩ آب سنة ١٦٣٨ ، فاستدعي الحاقلاني من باريس ليقوم مقامه فبرحها في سنة ١٦٤٢

مذ تخصّص الحاقلاني للعلم ، علت منزلته في اعين اصحابه ورؤسائه. ففي ١٥ ك ٢ سنة ١٦٣١ ، عقـد اجتماع في قصر الكردينال اوبالدينوس ، اشترك فيه الحاقلاني ، للبحث في ما اذا كان يجب حذف اسماء فيلوكسينوس وانتيمون وفاطيراس من السنكسار الماروني ، فتقرر ذلك. كمـا تقرر ان كتاب قداس الموارنة ليس فيه بدعة ، وان مارون الرئيس هو قديس.

وكان الحاقلاني عند شخوصه الى باريس اتاهـا بمخطوطين من المكتبة الڤاتيكانية فيها مقالات ليعقوب الرهاوي ، ولغريغوريوس ابن العبري ، ولابن سينا ، ولاثناسيوس البلدي.

ولاهتمامه بالكتب الطقسية المارونيـة ، اهدى الى موريتوس نسخة من الشرطونية المارونية ليطبعهـا مع رسائل ضافية شرح فيها طقوس الكنائس الشرقية ، فجمعها العـالم ريشار سيمون وطبعها في باريس سنة ١٦٨٢ . اما الشرطونية فطبعت في انفرس ، من اعمال بلجيكة ، ١٦٩٥ بعناية العالم يوحنا موريتوس المذكور الذي قال في مقدمتها

«ان النسخة التي اعتمدناها قديمة متقنة الخط اهداها الينا سنة ١٦٣٩ ، اذ كنا في رومية ، ابراهيم الحاقلاني الماروني ، استاذ اللغتين السريانية والعربية الشهير ، واستخرجناها وقتئذ في رومية الى اللاتينية. ولما رجعنا الى باريس اخذنا تلك النسخة منتظرين فرصة مناسبة لنشرها.

وبعد ذلك قدم الى فرنسة ابرهيم للحاقلاني ، وتبعه اليها بعد سنوات احد اساقفة الملة المارونية لتبيض بعض شؤون طائفته ، ولمحاولة طبع الشرطونية المذكورة ، لافادة ابناء ملته . ثم رجع الى رومية . وذهب اليها بعده الحاقلاني حين انتدبه الكردينال بليوني لخدمة مجمع نشر الايمان . واخذ بين امتعته النسخة المذكورة . لكنه لما اتبه الى ذلك ارسلها اليّ .»

ونظن ان الاسقف المحكي عنه هو اسحق الشدراوي ، الذي اتى الى فرنسة نحو سنة ١٦٤٩ ، وكان قد سعى لطبع الكتب الطقسية المارونية ، لكننا لم نرَ ما يفيد توفقه الى ذلك تمام التوفق . ومما تقدم يظهر ان الحاقلاني ، في اثناء اقامته في باريس ، كان يتردد الى رومية ، حيث كان قد عين معلماً للغة العربية في الجامعة الكبرى . ولم يكن تجواله للتنزهة والاستراحة ، بل للعمل ولتنفيذ بعض مقاصده العلمية الآئلة لمنفعة طائفته .

فانه في سنة ١٦٤٠ ، نشر عشرين رسالة للقديس انطونيوس الكبير ، مأخوذة عن مخطوط يرتقي عهده الى السنة ٨٠٠ . وفي العام التالي نشر في باريس كتاب مختصر الفلسفة العربية ، فاشتهر في باريس بعلمه وصفاته الممتازة ، فبلغ خبره الى الكردينال ريشليو ، الذي بادر الى تعيينه استاذاً في جامعة فرنسة (*Collège de France*) ليدرّس فيها اللغات الشرقية ، بعد جبرائيل الصهيوني . واجرى عليه راتباً مكنه من ان يعيش مطمئن البال ليتخصص للتعليم والتأليف . وكلفه ان يترجم له بعض الكتب العربية ، وسماه ترجمان بلاط فرنسة ، وقد نُقش اسمه في الجامعة الفرنسية بين اسماء الاساتذة الذين امتازوا بتعليمهم في ذلك المعهد الطائر الشهرة . ومما نعرفه من تآليفه وترجماته في ذلك العهد معجم عربي لاتيني لا يزال مخطوطاً في مكتبة باريس ، وترجمته لكتاب مناهج الحكمة لبرهان الدين ، نشرها في باريس سنة ١٦٤٦ . وقد طُبع النصّ مع الترجمة في اوترخت سنة ١٧٠٩ . وترجم ايضاً قوانين القديس انطونيوس الكبير وخطاباته ، وتنبيهات واجوبة صادرة منه ، وقدّمها لحياة ابي الرهبان موضوعة باللاتينية .[1]

---

١) وقرأنا في احدى المقالات ان الحاقلاني درس اللغات الشرقية في بيزا ، ولم تسكن من ان تثبت ذلك ، فذكرناه . وكان للحاقلاني مذاهب في العلوم اللغوية وتاريخها ، وهو

وقد استحصل على كتاب ايضاح القداس لمار يوحنا مارون ، البطريرك الاول على الطائفة المارونية ، نسخ في قرية غميلي من قرى جزيرة قبرس سنة ١٥٣٥ ، بيد الخوري يمين ، خادم تلك القرية. وهذه النسخة معروفة حتى اليوم بكوديكس الحاقلاني ، ولدينا نسخة منها.

ويذكر بين الكتابات التي نسخها زجلية ابن القلاعي في البطريرك جبرائيل من حجولا الذي استشهد في مدينة طرابلس سنة ١٣٦٣ ، ويكرّم الموارنة ذكره حتى اليوم ، وبشجاعته المسيحية يضرب المثل. وروى عن هذا البطريرك انه نشر جبّته على اشعة الشمس . ونسخ الحاقلاني زجليات اخرى للاسقف نفسه جاء فيها عن يعقوب السروجي انه لم ينقد لبدعة ساويرا والبرادعي.

اما قدوم الحاقلاني الى فرنسة الذي ذكره موويوس فكان في السنة ١٦٤٥ ، وفيها كان قد حصل خلاف بين بطريرك الموارنة يوسف حليب العاقوري وبعض المرسلين يتعلق بالتفويض بالاعتراف . وكان الآباء الكبوشيون يدّعون انه لا يلزمهم تفويض البطريرك لاستباع اعتراف الموارنة ، وكان البطريرك يقول بالخلاف . وفي اثناء ذلك زار المرسل اليسوعي الاب فرنسيس ريغوردي البطريرك المذكور ، في دير حراش ، ليخاطبه بهذه المسئلة . فاستقبله البطريرك بكل ترحاب وعانقه ، وافضى اليه انه اطلق الحرم على الرهبان الفرنج الذين يسمعون اعترافات الموارنة بدون تفويض بطريركهم ، ذلك اسوة بما يعمله الحبر الاعظم ، واحبار الكنيسة ، في ايطالية وفرنسة ، وان نيته ليست معاكسة المرسلين بل التمسك بما يظنه حقًا من حقوقه ، وعلى كل حال فانه يستثني الرهبان اليسوعيين ، لما له من العطف الممتاز عليهم بسبب نشاطهم وغيرتهم والصداقة المتأصلة بينه وبينهم وخدماتهم للموارنة ، وقد امره البطريرك ان يكتب الى الحاقلاني ، مترجم البلاط الروماني ، هذه الامور لكي يعرضها على مسامع الحبر الاعظم واحبار البلاط الروماني ، وسفير الملك العريق في المسيحية ، اي ملك فرنسة . وهذه الكتابة تشعر بما كان للحاقلاني من المنزلة عند اساتذته

القائل ان ثاوفيل الرهاوي المارواني وضع خمسة احرف سريانية جديدة ، على شبه ما فعل اليونان ، غيّرها عما يشبهها من الحروف في اللفظ والكتابة ، ولم يُذكر ما هي هذه الاحرف.

القدماء ، ومن النفوذ في البلاط البابوي ، مع انه لم يرتسم كاهناً ولا شماساً انجيلياً لاسباب نجهلها . بل كان قد قبل الدرجات الصغار ، وعين قانونياً في احدى كنائس رومية ، ثم تزوج قنسطنسة ابنة ميخائيل الباني ، فرزق منها ولدين : ديونيسيوس ويوحنا . دخل الاول المدرسة المارونية ، وكان له من العمر ١٢ سنة ، فدرس نصف الفلسفة ثم دخل رهبنة شمامسة مار لورنسيوس ، مع اخيه يوحنا الذي لم يدرس الفلسفة . فديونيسيوس سيم كاهناً وعين معلماً وطلبته ملكة اسوج القاطنة في رومية ليتقيد في خدمتها . اما يوحنا فخرج من الرهبنة قبل ان يكمل التجربة ، ودخل رهبنة اخرى (الدويهي)

ومع اهتمام الحاقلاني بامور طائفته ، كما سبق لنا ذكره وما سيرد فيما بعد ، نراه لا يكلّ عن التأليف والترجمة . فانه في سنة ١٦٤٧ نقل الى اللاتينية كتاب خواصّ النبات والحيوان لعبد الرحمان . واخذ يجمع المستندات التاريخية المؤيدة صحة القوانين العربية المنسوبة الى مجمع نيقية ، ونشرها بالطبع في اللغة اللاتينية . وكان قد اخذ هذه الوثائق من ستة مصادر عربية . قابلها بعضها بعضاً ونشرها بعد ان ترجمها ترجمة فصحى . وكان قصد الحاقلاني ان يثبت ان القوانين العربية المنسوبة الى مجمع نيقية هي حقيقةً لذلك المجمع . وعدد هذه القوانين ٨٤ قانوناً ، ترجم منها ماروتا اسقف تكريت ٧٣ قانوناً ، واضاف اليها غيره احد عشر اخر . وقد وافق على صحة نسبتها الى المجمع النيقاوي الاب تيرس غونزالس اليسوعي الذي انتخب فيما بعد رئيساً عاماً لرهبانيته ، والعلّامة الحاقلاني ، ورفضها العلامة بترسون .

(المقال صلة)